

حاضرة قسنطينة وإسهامات علمائها في الحركة الفكرية

بين القرنين 7-10 هـ / 13-16 م

The metropolis of Constantine and the contributions of its scholars to the intellectual movement between the 7-10 AH / 13-16 CE.

د. / عبد الرحمان بن بوزيان

ط.د / أقدوش ماضي

مخبر الدراسات الحضارية والفكرية

مخبر البحوث والدراسات الاجتماعية.

جامعة أبي بكر بلقايد / تلمسان

جامعة 20 أوت 1955 / سكيكدة.

a.benbouziane@univ-skikda.dz

m.agdouche@univ-skikda.dz

تاريخ الإرسال: 2022/03/24 تاريخ القبول: 2022/11/04 تاريخ النشر: 2022/11/30

ABSTRACT :

This study deals with the definition of the metropolis of Constantine and the scientific contributions of its scholars during the seventh to tenth century AH corresponding to the thirteenth to sixteenth century AD. It established educational institutions such as schools, mosques... It attracted scholars and students, and stimulated the intellectual life, which led to abundant scientific production through the contribution of the present scholars with many works in various types of science and knowledge, some of which have reached us and some of them are missing.

Keywords: metropolis Constantine ; scholars ; sciences ; mental science ; scientific production ;

الملخص:

تتناول هذه الدراسة التعريف بحاضرة قسنطينة وإسهامات علمائها العلمية خلال القرن السابع إلى العاشر الهجري الموافق للثالثة عشر إلى السادسة عشر الميلادي، حيث شهدت مدينة

قسنطينة في هذه الفترة حركية فكرية ونشاطا علميا لافتا، فاق العهود السابقة من نواحي عدة. فقد أنشأت المؤسسات التعليمية كالمدارس والمساجد...، واستقطب أهل العلم من العلماء والطلبة، ونشطت الحياة الفكرية، ما أدى إلى إنتاج علمي وفير وذلك من خلال مساهمة علماء الحاضرة بمصنفات كثيرة في مختلف صنوف العلوم والمعارف، منها ما وصل إلينا ومنها ما هو في عداد المفقود.

الكلمات المفتاحية: حاضرة قسنطينة ؛ العلماء ؛ العلوم ؛ العلوم العقلية ؛ الإنتاج العلمي مقدمة:

تعتبر دراسة موضوع تاريخ الحواضر من المواضيع المهمة التي تغطي اللثام عن جزء من التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للأمة، فهي تعبر عن جزء من وضعية الدولة ومكانتها، ومدى التقدم والرقي الذي وصلت إليه.

عرفت بلاد الغرب الإسلامي نشوء العديد من الحواضر عبر مختلف الحقب الزمنية، منها ما كانت امتدادا لمدن قديمة، فهي حواضر قديمة جديدة، ومنها حواضر نشأت من العدم، وبلغت في أزمنة قصيرة شأوا كبيرا في جميع الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولم يشذ المغرب الأوسط عن القاعدة العامة التي في سائر الأقطار، فقد عرف على امتداد إقليمه الجغرافي، وخلال الفترة الوسيطية بروز العديد من المدن والحواضر لعبت أدوارا تاريخية مهمة، وخلفت وراءها تراثا معماريا وثقافيا وعلميا لازالت الأبحاث التاريخية تكشف عنها وعن مكنوناتها إلى اليوم .

فتلمسان وورجلان وتوات وتيهرت والقلعة وبجاية وقسنطينة وغيرها كلها حواضر عرفت ازدهارا في فترات متفاوتة من العصر الوسيط، فتيهرت كانت عاصمة للرستميين، وقلعة بني حماد كانت القلب النابض للدولة الزيرية، ثم بعدها بجاية عاصمة للحماديين، وتلمسان

كانت حاضرة وعاصمة للدولة الزيانية، أما قسنطينة فرغم انضوائها لزمن طويل تحت لواء الحفصيين إلا أنها تبقى جغرافيا تابعة للمغرب الأوسط أو الجزائر حاليا.

تعتبر حاضرة قسنطينة من أهم حواضر المغرب الوسيط، فقد لعبت في الفترة الوسيطة أدوارا سياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وتركت لنا موروثا ثقافيا ضخما لا تزال جهود الباحثين إلى اليوم تستكشفه وتنش عن الخفي منه.

في هذه المقال العلمي نتعرض بالتعريف لحاضرة قسنطينة وإنتاج علمائها الفكري خلال القرن السابع إلى العاشر الهجري الموافق للثالثة عشر إلى السادسة عشر الميلادي. وعليه يمكن طرح الإشكالية التالية: إلى أي مدى ساهمت حاضرة قسنطينة في الحركة الفكرية خلال القرن السابع إلى العاشر هجري الموافق للثالثة عشر إلى السادسة عشر ميلادي؟ وتتفرع عن الإشكالية جملة من التساؤلات نذكر منها: كيف كان المنتج العلمي في هذه المرحلة؟ ومن هم أبرز رواد الحركة العلمية في هذه الحاضرة؟ وما هو انتاجهم العلمي في العلوم النقلية والعقلية؟ هذه أسئلة وأخرى نحاول الإجابة عنها من خلال العناصر الآتية:

1-التعريف بمدينة قسنطينة:

1.1-نشأتها:

مدينة قسنطينة هي مدينة عريقة جذورها ضاربة في أعماق التاريخ، إذ سكنها الإنسان القديم منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.⁽¹⁾ ويعود تاريخ نشوء المدينة إلى العهد النوميدي ما بين القرن الرابع الميلادي والقرن الثالث قبل الميلاد.⁽²⁾

2.1-موقعها:

تحتل قسنطينة موقعا استراتيجيا، إذ تتوسط الشرق الجزائري، وهي ملتقى شبكة من الطرق، بالإضافة إلى أنها نقطة عبور للكثير من القوافل التجارية القادمة من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب.

فلكن يتحدد موقع المدينة على خط طول 35.7 شرقا ودائرة عرض 36 / 13 شمالا، وهي تقع بين إقليمين، إقليم التل وإقليم الصحراء، وهي مبنية فوق جبل صخري غرب وادي الرمال.⁽³⁾

وصفها البكري في المسالك والممالك فقال: "وهي مدينة أولية كبيرة، أهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها وهي على ثلاثة أثمار عظام، تجري فيها السفن قد أحاطت بها، تخرج منها عيون تعرف بعيون أشقار".⁽⁴⁾

ثم يذكر البكري ساكنة قسنطينة فيقول عنهم: "ويسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة ونفزاوة وقسطنطية، وهي لقبائل من كتامة".⁽⁵⁾ أما أسواقها فيصفها البكري ويصف نشاطها فيقول: "وبها أسواق جامعة ومتاجر رابحة وبينها وبين مرسى سيقدة مسيرة يوم".⁽⁶⁾ أما الإدريسي فيصف قسنطينة بالمدينة العامرة وأهلها من أهل المال والسعة فيقول: "...ومدينة قسنطينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب".⁽⁷⁾

ثم بعدها يسترسل في وصف بنائها والوديان المحيطة بها وأبوابها وقنطرهما الرومانية مع ذكر المراحل التي تبعد بها عن المدن المجاورة بها.⁽⁸⁾

أما صاحب الروض المعطار والذي يبدو أنه نقل كثيرا عن الإدريسي في نزهة المشتاق، فعندما تحدث عن قسنطينة قال: "من مشاهير بلاد إفريقية، بين تيجس وميلة، وهي مدينة أولية كبيرة أهلة فيها آثار الأول...".⁽⁹⁾

ثم يضيف "وبها أسواق وتجار، وأهلها مياسير ذو أحوال وأموال ومعاملات للعرب...".⁽¹⁰⁾ ويشير إلى التشابه بين قسنطينة والمدينة الأندلسية رندة من حيث المنعة

والتحصين فيقول: "وقسنطينة حصينة في غاية المنعة والحصانة لا يعلم بإفريقية أمنع منها، بل ليس لها نظير إلا مدينة رندة بالأندلس ... " (11)

3.1- قسنطينة حاضرة إسلامية :

بعد فتح المسلمين لمصر ما بين سنتي (18 - 21 هـ / 639-642م) اشترأت أنظار الفاتحين إلى ما وراء مصر، إلى بلاد المغرب، فنظمت حملات الفتح وكانت على مرحلتين : الأولى مرحلة الاستكشاف والاستطلاع والتي استمرت من (23 إلى 50 هـ / 641 إلى 670م)، ثم تلتها مرحلة الفتح المستقر بداية من (50 إلى 97 هـ / 670 إلى 717م). (12)

أما تاريخ انضواء قسنطينة تحت سلطان الإسلام والمسلمين فإن المصادر التاريخية تسكت عن ذكر تاريخ الفتح لهذه الحاضرة، باستثناء الواقدي (ت 207 هـ / 823م) الذي انفرد برواية ساق فيها وقائع فتح قسنطينة في مؤلفه " فتوح إفريقية"، إلا أن ما ساقه هو أشبه بالرواية الشعبية وأقرب إلى الخيال من الحقيقة، فهي مليئة بالأخطاء التاريخية كونه خلط بين الفاتح عقبة بن نافع الفهر وعقبة ابن عامر الجهني، إذ نسب الفتح لهذا الأخير (13).

بينما هناك قرائن تفيد أن الفتح كان على يد أبي المهاجر دينار (55 - 62 هـ / 674 - 681م) الذي نهض إلى المغرب حتى وصل إلى تلمسان ونزل عيوننا هناك تعرف إلى الآن بعيون أبي المهاجر. (14)

بعد الفتح الإسلامي لقسنطينة تعاقب على حكمها عدد من الولاة والقادة خلال العصر الوسيط، من النصف الثاني للقرن الأول الهجري إلى غاية الربع الأول من القرن السابع للهجرة، إذ أصبحت تحت الحكم الحفصي بداية من سنة 625 هـ / 1227م، فعرفت المدينة الحاضرة في ظل الحفصيين قفزة نوعية في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والعمرانية والثقافية. (15)

ورث الحفصيون التركة الموحدية، فساروا على نهجهم في تشجيع العلم والدعوة إلى التفقه وإعمال العقل والمحااجة لإقناع الآخر، وشجعوا على دراسة المذهب المالكي، والنظر في القرآن والسنة وفهمهما، إضافة إلى اعتماد الكتب التي كتبها المهدي محمد بن تومرت في التوحيد، فغدت المدارس في قسنطينة وغيرها من المدن الحفصية تسير على هذا النهج. (16)

2- صور من الحياة الفكرية بحاضرة قسنطينة :

تميزت الحياة الفكرية والثقافية بحاضرة قسنطينة في العهد الحفصي بالنشاط والتفوق عن الحقب الأخرى من ناحية الإنتاج المعرفي، وقد شملت الحياة العلمية والتعليمية كلا من العلوم النقلية والعقلية، فنجد الفقه والتفسير والحديث والأدب وغيرها يدرس بجانب الطب والرياضيات والفلك والمنطق والفلسفة ونحوها.

توجهت اهتمامات العلماء والطلبة إلى المدارس والمساجد للتدريس وفهل العلوم والإغتراف من شتى صنوف المعارف، فبرز علماء كثر، وعرفت المدينة العديد من العائلات العلمية التي توارثت العلم أبا عن جد، وتنوعت التأليف العلمية وكثرت لتشمل العلوم النقلية والعقلية .

و مما زاد الحاضرة القسنطينية إشعاعا وتوهجا حضاريا، قدوم العديد من العلماء من الأندلس على إثر الهجرات الأندلسية، وذلك بعد سقوط الموحدين ونشاط حروب الاسترداد التي قادها نصارى شبه الجزيرة الإيبيرية، فقد هاجر الكثير من العلماء إلى مدن بلاد المغرب الأوسط ومن بينها قسنطينة، وهذا ما ساهم أكثر في ازدياد نشاط الحركة العلمية، فكما يقول ابن قنفذ: " كانت هذه الجالية الأندلسية التي من ضمنها من ذكر تعد مجموعة متنوعة من أدباء ومؤرخين وفقهاء ومحدثين ومسندين، حملوا معهم ما تلقوه في الأندلس... " (17)

ضف إلى ذلك، التلاقح بين الثقافة المغربية والثقافة الشرقية من خلال الشيوخ والطلبة العائدين من المشرق، ما أدى إلى تنوع ثقافي وثراء فكري وغزارة في الإنتاج العلمي. يقول صاحب الفارسية: "ولقحت الثقافتان (أي الأندلسية والمغربية) بثقافة شرقية جلبها إما بعض الأندلسيين الوافدين الذين زاروا المشرق... أو بعض الأفارقة الذين قصدوا المشرق لتتميم هذه الثقافة". (18)

1.2- المؤسسات التعليمية:

كانت العملية التعليمية والنشاط الفكري في حاضرة قسنطينة يمارس من خلال مختلف المؤسسات التعليمية المنتشرة في ربوع هذه الحاضرة، سواء كانت مدارس، أم مساجد وزوايا، أم بيوت العلماء... إلخ، فصورة المنظومة التعليمية في قسنطينة تشبه مثيلاتها في الحواضر الأخرى كجاية وتلمسان وغيرهما. وقد كان الاهتمام بهذه المؤسسات رسميا وشعبيا؛ فالحكام الحفصيون يولون أهمية للعلم والعلماء ويشجعون عليه بل ويقربون العلماء ويجزلون لهم العطايا. أما شعبيا فالناس كما يقال على دين ملوكهم؛ فطلب العلم والرحلة في سبيله غذا ديدن الكثير من أبناء الحاضرة، وساهم الناس في بناء المساجد وتشيد الزوايا وتقديم العون المادي للطلبة، وذلك من خلال التصديق وبذل الزكوات وتوقيف الأوقاف والحبوس على هذه المؤسسات التعليمية. فالشعب يغذي هذه المؤسسات ماديا، وهي تغذيه فكريا وروحيا. (19)

1.1.2- المدارس:

عرف المغرب الأوسط تواجد العديد من المدارس في مدنه، خاصة مدينة تلمسان التي وقف العلماء والكتاب كثيرا عند مدارسها وتحدثوا عنها بشيء من التفصيل من حيث البناء والتشييد ومكوناتها وهياكلها، وكذا العلوم التي تدرس فيها، والمشيخة العلمية التي نيظت بها

مهمة التدريس وغيرها، إلى أن هذه المصادر عندما تصل إلى حاضرة قسنطينة تصمت، فلا تسمى المدارس ولا أماكنها أو عدد طلابها وشيوخها... إلخ. (20)

وقد أشار الوزان عند حديثه عن مدينة قسنطينة إلى وجود مدرستين وزوايا ثلاث أو أربع دون أن يعطي الأسماء، ولا أي تفاصيل أخرى حيث قال: "تستطيع قسنطينة، نظرا لحجمها، أن تضم ثمانية آلاف كانون،... ومليئة بالدور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجامع الكبير، والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع". (21)

وذكر ابن الفكون أن هناك مدرسة تسمى مدرسة محمد بن أفوناس، نسبة إلى أبي عبد الله محمد بن أفوناس الذي يعتبر من علماء قسنطينة. (22) ومدرسة ثانية تحولت بعد زمان إلى زاوية تشرف عليها عائلة ابن الفكون. ومدرسة ثالثة هي مدرسة الوزان، نسبة إلى الفقيه المتصوف والمحدث أبو حفص عمر الوزان بالمكان المعروف برحبة الجمال، وكان للوزان مسجد قريب من المدرسة آل إلى الزوال بعدما شيدت السلطات الفرنسية على أنقاضه المسرح الجهوي. أما المدرسة الرابعة فهي المدرسة التي تعود إلى أسرة الباديسي، وقد عزم السلطان المريني أبو الحسن على تحويل دار المتصوف أبو الهادي إلى مدرسة بعد شرائه منه، ولكن الأمر بقي أمية دون أن تتجسد على أرض الواقع. (23)

2.1.2- الزوايا:

تعتبر الزوايا مكان لتحفيظ القرآن الكريم، وإلقاء الدروس، وإقامة الصلوات الخمس، وتوجد في قسنطينة أربع زوايا، إضافة إلى زاوية تم تأسيسها في القرن التاسع الهجري في مكان فندق لبيع الخمر (24)، وزاوية أبو هادي صديق البيوسفي الملازي الذي أسس زاوية تعرف بزاوية ملارة، وغيرها من الزوايا التي طمسها النسيان وصمتت عنها المصادر. (25)

3.1.2- المساجد:

إن أول ما يتم بناؤه في المدينة الإسلامية هي المساجد، فهي أماكن للصلاة بالدرجة الأولى، ثم يتوسع نشاطها إلى التعليم القرآني وتقديم الحلقات والدروس في مختلف أنواع العلوم، فهي موجودة قبل تأسيس المدارس، لكن بعد تزايد أعداد الطلاب والتوسع في المواد العلمية وأصناف العلوم التي تقدم مادتها للطلبة، أنشأت أماكن أخرى للتعليم سميت بالمدارس. وقد كانت بعض المدارس تابعة للمسجد، وبعضها الآخر مستقل. أما البنايات التي قصرت على الأطفال الصغار فأطلق عليها اسم الكتاتيب.

عرفت حاضرة قسنطينة تشييد العديد من المساجد في مختلف أحيائها خلال فترة العصر الوسيط، فمثلا أسس جامع القصبة داخل القصبة وقصر على الأمراء والحاشية، أما الجامع الكبير أو الجامع الأعظم فقد بني سنة 530 هـ / 1135 م ويعتبر أقدم جامع بالمدينة، وكذلك يوجد برحبة الجمال مسجد سيدي النقاش، ومسجد أبي عبد الله الصغار (ت 750 هـ / 1350 م) بجوار باب القنطرة، ومسجد عمر الوزان الذي بني مكانه مسرح المدينة وغيرها من المساجد الأخرى التي يضيق المجال لعددها وذكرها كلها هنا. (26)

إن المسجد إضافة إلى أنه مكان للعبادة، فهو مؤسسة تنشط فيه الحلقات العلمية، وتدرس فيه مختلف صنوف العلوم والمعارف العقلية والعقلية.

2.2- إسهامات علماء حاضرة قسنطينة الفكرية :

عرفت الساحة العلمية والفكرية في حاضرة قسنطينة خلال الفترة الممتدة من القرن (7 إلى 10 هـ / 13 إلى 16 م) نشاطا علميا وازدهارا فكريا وإنتاجا غزيرا في شتى أنواع العلوم النقلية والعقلية، وقد ساهم في هذه الحركة الفكرية ثلة كبيرة من العلماء في حقبة متعددة من فترة القرون محل الدراسة، نذكر منهم :

2.2.1- أبو علي حسن بن علي بن الفكون القسنطيني (ت بعد سنة 602 هـ / 1205 م):

هو الشيخ الفقيه، الكاتب الأديب، أبو علي حسن بن عمر الفكون القسنطيني، شاعر المغرب الأوسط في المائة السادسة وأول السابعة، فهو يوصف بأنه غزير النظم والنثر، وهو أحد شيوخ الرحالة العبدري⁽²⁷⁾، رحل إلى حاضرة مراكش وكال المديح للخليفة الموحي، فارتفعت مكانته عندهم وعلا قدره بينهم وقابلوه بأحسن الجوائز والتكريمات، له "رحلة" نظمها خلال سفره من حاضرة قسنطينة إلى مراكش وله ديوان شعر. وقد ذاع صيته واشتهر بمنظومته التي ضمنها رحلته، وهي من أنفس ما كتب في الشعر، فهو يعتبر بحق من الأدباء الفضلاء النبهاء الذين تستطرف أخبارهم وتستحسن، وأصله من قسنطينة من بيت من بيوت العلم، ومن مليح شعره ومستحسنه ما جاء في قصيدة مطولة قال فيها: (28)

دَعِ الْعِرَاقَ وَبَعْدَادَ وَشَامَهُمَا ﴿٥﴾ فَالْتَّاصِرِيَّةَ مَا إِنْ مِثْلُهَا بَلَدٌ
بَرٌّ وَبَحْرٌ وَمَوْجٌ لِلْعُيُونِ بِهِ ﴿٦﴾ مَسَارِحُ بَانَ عَنْهَا الْهَمُّ وَالنَّكَدُ
حَيْثُ الْهَوَى وَالْهَوَاءُ الطَّلُقُ مُجْتَمِعٌ ﴿٧﴾ حَيْثُ الْغِنَى وَالْمَنَى وَالْعِيشَةُ الرَّغْدُ
يَا طَالِبًا وَصَفَهَا إِنْ كُنْتَ ذَا نَصْفٍ ﴿٨﴾ قُلْ جَنَّةُ الْخُلْدِ فِيهَا الْأَهْلُ وَالْوَلَدُ

2.2.2- حسن بن علي بن ميمون بن قنفذ القسنطيني (ت 750هـ / 1349م) :

يعتبر من علماء وفقهاء قسنطينة ولد سنة (694هـ / 1293م). بمدينة قسنطينة، أخذ علومه في البداية بها ثم ببجاية، كانت له رحلتين إلى بلاد المشرق طالبا للعلم وقاصدا الحج إلى بيت الله الحرام؛ وقد كانت الرحلة الثانية في السنوات الأخيرة من حياته وذلك قبل سنة 745هـ. أخذ العلم عن جماعة من فطاحلة العلم منهم أبو علي ناصر الدين البجائي، وأبوحيان النحوي، وشمس الدين الأصهباني، وابن غريون، وأبو علي بن حسين البجائي. عرف عصره وقوع طاعون، ويسبب فتنة هذا الوباء واختلاف طلبته في الفرار من مرض به ألف كتاب "المسنون في أحكام الطاعون"، وله مؤلف آخر معروف ب"المسائل المسطرة في النوازل

الفقهية"، وهي كتب في حكم المفقود. توفي سنة (750/1349م) في العام الذي احتاح فيه الطاعون بلاد المغرب.⁽²⁹⁾

3.2.2- أبو القاسم بن الحاج عزوز بن علناس القسنطيني (755/1354 م)

من فقهاء وعلماء قسنطينة وأرباب اللغة، ذكر صاحب الوفيات أنه فقيه متفتن وهو من بني علناس، له تصانيف عدة منها "مختصر حسن في الفرائض" و لكن كتبه في حكم المفقود، وقد توفي بقسنطينة عام (755/1354م).⁽³⁰⁾

4.2.2- أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني (787/1385م) :

هو الفقيه المحدث القاضي أبو علي القسنطيني، من فقهاء المالكية، أخذ تعليمه الأول بقسنطينة ثم رحل إلى بجاية طلبا للعلم، ثم بعدها كانت له رحلة إلى بلاد المشرق كعادة المغاربة طلبا للعلم ولأداء مناسك الحج، فسمع بالقاهرة وغيرها من بلاد المشرق. بعد رجوعه عين كقاضي الجماعة بتونس سنة 778/1376م ثم أعفى منه، فعاد إلى مسقط رأسه قسنطينة وتولى فيها منصب القضاء.

روى عن ناصر الدين المشدالي، وابن غريون البجائي، وابن عبد الرفيق القاضي وغيرهم، كما روى عن صلاح الدين العلاني و خليل المكي، وابن هشام النحوي، وكانت ولادته حسب ابن قنفذ والتبكي سنة احدى وسبعمائة⁽³¹⁾. له ديوان شعري سماه "النفحات القدسية" أرسله إلى مفتي ديار القدس، ذكر فيه محاسن صلحاء وعلماء المشرق وفي مقدمتهم الصوفي القطب عبد القادر الجيلاني، وله أيضا شرح لكتاب "فوائد الدرر وفوائد الفكر في شرح مختصر السير" لأحمد بن فارس القزويني الرازي⁽³²⁾. توفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة وسنه يقرب من تسعين سنة.⁽³³⁾

5.2.2- محمد بن عبد الرحمان بن أبي زيد المراكشي القسنطيني الضير (ت807هـ/1404م):

ولد محمد بن عبد الرحمان أبو عبدالله بن أبي زيد المراكشي القسنطيني الضير بمراكش سنة (739 هـ / 1339 م) ضرياء، انتقل إلى حاضرة قسنطينة ومكث بها، كتب كتابا أسماه كما ذكره الإمام السخاوي " إسماع الصم في إثبات الشرف من قبل الأم "، حيث أصدره بالرغم من الاختلاف الموجود بين علماء بجاية حوله، فمنعه التونسيون وأثبته البجائيون. ومن مصنفاته أيضا "ترجيز المصباح في المعاني والبيان"، وقد شرح ترجيز المصباح ثم قام أيضا باختصاره. (34)

6.2.2- أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الشهير بابن الخطيب وبابن القنفذ القسنطيني (ت810هـ/1407م):

قبل أن نتطرق إلى التعريف بحياة أبو العباس أحمد بن قنفذ، لا بأس من الإشارة إلى معنى وأصل اسم عائلة ابن القنفذ والذي اشتهرت به هذه الأسرة. فالظاهر أن اسم ابن قنفذ ينحدر من بطن بني قنفذ وهم من قبيلة " أشجع " العدنانية التي كان يسمى أهلها ببني قنفذ بن حلاوة بن سبيع بن أشجع، أو هو اسم لجد له لُقِبَ بهذا اللقب لوجود ابن قبله. (35)

أما شهرته بابن الخطيب، فالسبب يرجع إلى أن والده تولى الخطابة، وكذا جده كان خطيبا في المسجد مدة خمسين سنة وقيل ستين سنة. (36)

ولد أبو العباس أحمد الخطيب بقسنطينة سنة (740 هـ / 1340 م) في بيت علم، إذ توارث أجداده العلم والأدب والخطابة، وقد أشار ابن قنفذ إلى تاريخ ولادته بشعر كتبه قال فيه :

مَضَتْ سِتُّونَ عَامًا مِنْ وُجُودِي ﴿٥﴾ وَمَا أُمْسَكَتْ عَنْ لَعِبٍ وَلَهْوٍ

وَقَدْ أَصْبَحْتُ يَوْمَ حُلُولِ إِحْدَى ﴿٣٧﴾ وَثَامِنَةِ عَلَى كَسَلٍ وَسَهْوٍ

وفي البستان ذكر سبعون في البيت الأول: (38)

مَضَتْ سَبْعُونَ عَامًا مِنْ وُجُودِي ﴿٣٨﴾ وَمَا أَمْسَكْتُ عَنْ لَبِّ وَلَهْوٍ

وَقَدْ أَصْبَحْتُ يَوْمَ حُلُولِ إِحْدَى ﴿٣٩﴾ وَثَامِنَةِ عَلَى كَسَلٍ وَسَهْوٍ

فَكَمْ لِأَبْنِ الْخَطِيبِ مِنَ الْخَطَايَا ﴿٤٠﴾ وَفَضْلُ اللَّهِ يَشْمَلُهُ بِعَفْوٍ

كان والده حسن بن علي (ت 750/1349 م) فقيها وأديبا صوفيا، ساهم في النشاط العلمي والفكري لحاضرة قسنطينة خلال القرن الثامن الهجري الموافق للرابع عشر الميلادي. (39)

أخذ أبو العباس أحمد الخطيب تعليمه الأول على يد والده بقسنطينة ولكن الوالد التحق بالرفيق الأعلى وترك ابنه طفلا لم يتجاوز العشر سنوات، فتكفل به جده من أمه يوسف الملاري (ت 764 هـ / 1363 م) صاحب زاوية الملازة، القطب الصوفي خريج مدرسة أبي مدين الغوث. (40) بعدما نهل العلوم من جده يوسف الملاري وكذا من بعض شيوخ قسنطينة منهم الفقيه حسن بن خلف بن باديس (ت 784 هـ / 1382 م)، والحافظ حسن بن أبي القاسم بن باديس (ت 787 هـ / 1385 م)؛ (41) رحل إلى تلمسان والتقى بعلمائها، ووقف بالعباد عند زاوية أبي مدين ثم أكمل طريقه إلى فاس فأخذ نصيبا من العلوم في جامع القرويين ومكث هناك ما يزيد عن ثماني عشرة سنة، واحتك هناك برجال العلم والتصوف منهم أبو العباس أحمد بن قاسم القباب الفاسي المتوفي سنة (778 هـ / 1376 م). (42) ثم زار مراکش وآسفي وسلا ودكالة وغيرها حتى سنة (776 هـ / 1375 م) حيث عاد إلى قسنطينة وتولى فيها خطط كالخطابة والإفتاء والقضاء وعكف على نشر العلم بالتدريس والتأليف. (43)

وكما عرف ابن الخطيب بكثرة مشايخه، فقد عرف عنه أيضا كثرة الإنتاج العلمي في العلوم النقلية والعقلية، وقد أورد لنا في آخر كتابه شرف الطالب في أسنى المطالب قائمة بها، باستثناء ثلاثة كتب لم يذكرها فرما ألفها بعد شرف الطالب، هذا الأخير الذي ألفه سنة 684 هـ / 1285 م، ومؤلفاته تزيد عن الثلاثين مصنفا في شتى أنواع العلوم.⁽⁴⁴⁾ نذكر من جملة الكتب التي تركها ما يلي :⁽⁴⁵⁾

1.6.2.2- التأليف الموجودة :

- 1- "شرف الطالب في أسنى المطالب" وهو شرح للمنظومة المسماة "القصيد الغزلية في ألقاب الحديث" لأبي العباس أحمد بن فرج الإشيلي، وهي في مصطلح الحديث.
- 2- "الوفيات" وهو ذيل جعله لكتابه السابق، ويضم تراجم كثيرة للعلماء، مرتبة على القرون وعلى تواريخ وفياتهم، لكن التراجم قصيرة، وفي كثير من الأحيان لا تفي بالغرض.
- 3- "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" وتسمية الفارسية جاءت نسبة للأمير الحفصي الذي ألفه ابن قنفذ باسمه وأهداه له، وهو أبو فارس عبد العزيز .
- 4- "تحفة الوالد في اختصاص الشرف من قبل الوالد" .
- 5- "تسهيل المطالب في تعديل الكواكب" ويسمى أحيانا بتيسير المطالب. ذكر ابن قنفذ في آخر شرف الطالب في القائمة الواردة هناك أنه لم يهتد أحد إلى مثله من المتقدمين .
- 6- "تحصيل المناقل وتكميل المآرب" وهو شرح لكتابه تسهيل المطالب .
- 7- شرح منظومة ابن أبي الرجال المسماة "المنظومة الحسابية في القضايا النجومية"
- 8- "شرح الأرجوزة التلمسانية في الفرائض" .
- 9- "طبقات علماء قسنطينة" .

10- "أنس الفقير وعز الحقير" الذي جعله سجلا لرحلاته لمناطق مختلفة من بلاد المغرب (749 - 778 هـ / 1357 - 1376 م).

2.6.2.2. - التآليف المفقودة : هناك أكثر من عشرين كتاب لابن قنفذ هي في

حكم المفقود منها :

- 1- وسيلة الإسلام بالنبي عليه السلام .
- 2- بقية الفارض من الحساب والفرائض .
- 3- تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب .
- 4- حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب .
- 5- بسط الرموز في شرح الخزرجي .
- 6- أنس الحبيب عن عجز الطبيب .
- 7- شرح الثقات في علم الأوقات .
- 8- هداية السالك في بيان ألفية بن مالك .
- 9- تقريب الدلالة في شرح الرسالة "في أربعة أسفار" .
- 10- معاونة الرائي في مبادئ الفرائض.
- 11- تلخيص العمل في شرح الجمل "في المنطق".
- 12- أنوار السعادة في أصول العبادة.
- 13- شرح لقوله عليه السلام بني الإسلام على خمس" وفي كل قاعدة من الخمس أربعون حديثا وأربعون مسألة".
- 14- تسهيل عبارة في تعديل السيارة "واشتمل أربعين بابا وستين فصلا" .
- 15- الابراهيمية في مبادئ العربية .
- 16- القنفذية في ابطال الدلالة الفلكية.

والملاحظ من خلال عناوين مؤلفات ابن قنفذ هو التنوع من حيث الفنون التي تناولها بين الفقه والتوحيد والسيرة والفلك والطب والحساب، هذا ومن جانب آخر فانه أبدع في العلوم العقلية، خاصة في علم الحساب والفلك، بينما نجد أن مؤلفاته في العلوم الإنسانية قلد فيها من سبقه وسار مسيرة الأولين. هذا وقد توفي أبو العباس ابن الخطيب سنة (810هـ/1407م) مخلفا وراءه تركة علمية لازال البحث فيها حقلًا خصبا إلى اليوم.⁽⁴⁶⁾

7.2.2- أحمد بن محمد الشُّمْنِي (801-872هـ / 1399-1468 م):

هو أبو العباس تقي الدين أحمد بن محمد الشُّمْنِي القُسْنطيني المفسر المحدث الفقيه الأصولي الأديب النحوي، موطن أسرته بلدة " شمرة " بقسنطينة من أرض الجزائر حسب عبد المجيد بن حابة البسكري.⁽⁴⁷⁾

ولد تقي الدين بالإسكندرية سنة (801 هـ / 1393 م)، وانتقل إلى القاهرة وأخذ العلم عن الولي العراقي والجمال الحنبلي والعلاء البخاري، اعتنق المذهب الحنفي في الثالثة والثلاثين من عمره، وتولى مشيخة بعض المؤسسات العلمية، وامتنع عن ولاية القضاء الحنفي، أخذ عنه الإمام جلال الدين السيوطي ورثاه بقصيدة طويلة وحلاه في ترجمته.⁽⁴⁸⁾ وكذلك من تلاميذه الإمام السخاوي. ترك الشُّمْنِي مجموعة من المؤلفات نذكرها : " العالي الرتبة في شرح نظم النخبة " وهو شرح على نظم والده للنخبة في الحديث، و" شرح المغني لابن هشام " وهو مطبوع، كما شرح مختصر الوقاية في الفقه الحنفي، وكتب حاشية على الشفا سماه " مزيل الخفا على ألفاظ الشفا "، وله أيضا " أرفق المسالك لتأدية المناسك ". توفي ليلة الأحد سابع عشرين ذي الحجة سنة 872هـ / 1468 م.⁽⁴⁹⁾

8.2.2- قاسم بن يحيى بن محمد الفقون القسنطيني (965 هـ / 1558 م) :

أسرة الفقون أسرة لها باع طويل في العلم والأدب بحاضرة قسنطينة، ومن أبناء هذه الأسرة الفقيه المفسر القاضي قاسم بن يحيى الفقون، كان تعليمه الأول في قسنطينة ثم رحل إلى جامع الزيتونة بتونس طلبا للعلم، فبقي هناك سنوات حتى فاق أقرانه في الفقه والأصول، فاختاره الحفصيون لإمامة المسجد المقصور على الأمراء والسلاطين بتونس. بعد زمن رجع إلى قسنطينة، وعين قاضيا فيها. لقاسم بن يحيى الفقون بعض المؤلفات منها : شرح كتاب بن هشام (ت 761 هـ / 1359 م) المعنون بـ " أوضح المسالك على الفقيه ابن مالك " في علم النحو. توفي قاسم بن يحيى بقسنطينة سنة 965 هـ / 1558 م. (50)

9.2.2- مصطفى بن عبد الرحمان القسنطيني (ت 980 هـ / 1572 م) :

كان مصطفى بن عبد الرحمان من علماء وفقهاء الحنفية في قسنطينة، له إحاطة واسعة بعلمي المعقول والمنقول، متفوقا على أهل زمانه في علم الفلك. تولى فتوى الحنفية ثم بعدها القضاء، ثم الخطابة بعدة جوامع قسنطينة حتى توفي سنة 980 هـ / 1572 م. ترك عدة تصانيف منها : " تحرير المقال في جواز الانتقال "، وله " رسالة الوقف على المذهب " أي المذهب الحنفي، وله أيضا " شرح منظومة الشيخ أبي زيد سيدي عبد الرحمان في الحساب ". (51)

خاتمة :

في الختام يمكن القول أن مدينة قسنطينة تعتبر حاضرة قديمة جديدة، حيث لعبت خلال العصر الوسيط خاصة في العهد الحفصي منه أدوارا مهمة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية، وشهدت الحركة الفكرية فيها خلال القرن السابع إلى العاشر الهجري الموافق للثلاثة عشر إلى السادسة عشر الميلادي نشاطا لافتا، برز فيه مجموعة كبيرة من العلماء وثلة من البيوتات العلمية، حيث تعدت تأثيراتهم مدينة قسنطينة إلى سائر بلاد المغرب الأوسط وحتى إلى مناطق أخرى من العالم الإسلامي في المغرب والمشرق.

وقد ساهم علماء حاضرة قسنطينة خلال هذه المرحلة محل الدراسة بإنتاج علمي وفير، وتآليف عدة في العلوم النقلية كالفقه والأصول والتفسير والحديث وعلم القراءات والتوحيد والتصوف وغيرها، وفي العلوم العقلية كالطب والفلك والحساب ونحوها، وهو ما يوحي بأن قسنطينة كانت فعلا حاضرة علمية كان لها سهم وافر من الإشعاع الثقافي والإنتاج العلمي الذي عرفته بلاد المغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأخيرة من زمن العصر الوسيط.

الهوامش:

- ¹ - فيلاي عبد العزيز، مجمل تاريخ قسنطينة السياسي العمراني الثقافي والاقتصادي، دار الهدى، د ط، 2017، ص 12 .
- ² - المرجع نفسه ص 14 .
- ³ - روبر برانشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 الى نهاية القرن 15، تر، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ج1، ص 418 - 419 . عبد العزيز فيلاي، نفسه، ص 15 .
- ⁴ - البكري، أبو عبد الله، المسالك والممالك، تح، جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1424 هـ / 2002 م، ج2، ص 244 .
- ⁵ - المصدر نفسه.
- ⁶ - نفسه، ص 245 .
- ⁷ - الإدريسي الشريف، أبي عبد الله محمد بن محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د ط، 1422 / 2003 م، ج1، ص 265 .
- ⁸ - المصدر نفسه، ص 265 -- 267 .
- ⁹ - الحميري، محمد بن عبد النعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص 480 .
- ¹⁰ - المصدر نفسه، ص 410 .
- ¹¹ - نفسه، ص 410 - 411 .

- ¹² - سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى عصر الإستقلال، منشأة المعارف، الإسكندرية، د ط، 1993، ج1، ص 130 - 175. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 28.
- ¹³ - الواقي، محمد، فتوح إفريقية، المطبعة العمومية، تونس، ط1، 1315 هـ، ج1، ص 114 - 115. وللتفصيل في مسألة عدم صحة رواية الواقي ودحضها ينظر، عبد العزيز فيلاي، المرجع نفسه، ص 33.
- ¹⁴ - ابن عذارى المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق، بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1434 هـ / 2013 م، ج1، ص 54. عبد الحميد سعد زغلول، المرجع نفسه، ص 191.
- ¹⁵ - فيلاي عبد العزيز، الصلات الثقافية بين قسنطينة وتلمسان من ابن خميس إلى ابن باديس، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2020، ص 11-12.
- ¹⁶ - ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة، محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، د ط، 1336 هـ / 1908 م، ص 210. عبد العزيز فيلاي، الصلات الثقافية، المرجع السابق، ص 12.
- ¹⁷ - ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن حسين، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تح، محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، د ط، سنة 1968، ص 29.
- ¹⁸ - المصدر نفسه، ص 28.
- ¹⁹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص 44 - 45.
- ²⁰ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 17.
- ²¹ - الوزان، حسن بن محمد، وصف إفريقيا، تر، محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي، ط2، 1983، ج2، ص 56.
- ²² - الفكون، عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح، أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1408 هـ / 1987 م، ص 37.
- ²³ - عبد العزيز فيلاي، المرجع نفسه، ص 18.
- ²⁴ - روبر برانشفيك، المرجع السابق ص 422.
- ²⁵ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 21.
- ²⁶ - برانشفيك، المرجع السابق، ص 421. وكذلك: الفكون، المصدر السابق، ص 37.

Bkunschvig Robiert 'la berbérie orientale sous les Hafside, des origines a la fin du xv siecle, librairie d'amérique et d'orient, Adrien-maisonneuve, paris, 1940, p 387.

- ²⁷ - الحفناوي، أبو القاسم محمد بن شيخ بن أبي القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، تح، خير الدين شتر، دار كردادة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1433 هـ / 2012م، ج 2، ص 127.
- ²⁸ - الغريبي، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح، عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، سنة 1979 م، ص 334.
- ²⁹ - ابن قنفذ، أبو العباس أحمد بن الحسن، الوفيات، تح، عدل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، د ط، 1971 م، ص 355. ابن قنفذ، الفارسية، مصدر سابق، ص 42 وما بعدها.
- ³⁰ - ابن قنفذ، الوفيات، المصدر نفسه، ص 358. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 25. وكذلك: عزرودي نصيرة، "الإنتاج المعرفي لعلماء قسنطينة خلال العصر الوسيط"، مجلة عصور جديدة، جامعة وهران، الجزائر، العدد 18 - عدد خاص بقسنطينة - أوت 1436هـ/ 2015م، ص 66.
- ³¹ - التنبكي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الأبحاث، الجزائر، ط1، 2011، ص 148 - 149. ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 376.
- ³² - ابن قنفذ، نفسه، ص 377. الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص 122. نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1400 هـ / 1980 م، ص 27.
- ³³ - ابن قنفذ، أبو العباس أحمد الخطيب، أنس الفقير وعز الحقيقر، تص، محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، د ط، 1965 م، ص 50.
- ³⁴ - السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمان، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، د ط، دت، ج8، ص 48.
- ³⁵ - ابن قنفذ، الفارسية، مصدر سابق، ص 39. القلقشندي، أبو الباس أحمد، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1400 هـ / 1980 م، ص 402.
- ³⁶ - عادل نويهض، المرجع السابق، ص 268.
- ³⁷ - ابن قنفذ، الفارسية...، مصدر سابق، ص 52 - 53.
- ³⁸ - ابن مريم، المصدر السابق، ص 311 - 312.
- ³⁹ - ابن قنفذ، الفارسية...، مصدر السابق، ص 41 - 42.

- ⁴⁰ - نفسه، ص 42. وكذلك: عبد العزيز فيلاي، مجمل تاريخ قسنطينة، مرجع سابق، ص 155 .
- ⁴¹ - ابن قنفذ، الفارسية...، مصدر السابق، ص 54.
- ⁴² - التنبكي، المصدر السابق، ص 85 .
- ⁴³ - ابن قنفذ، نفسه، المقدمة ص — ح .
- ⁴⁴ - ابن قنفذ، المصدر السابق، المقدمة، ص خ د ذ .
- ⁴⁵ - قويسم محمد، "مدينة قسنطينة ما بين القرنين 07 - 10 هـ / 13 - 16 م دراسة سياسية عمرانية اجتماعية وثقافية"، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2، 1434 - 1435 هـ / 2013 - 2014 م، ص 301. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 158 .
- ⁴⁶ - عبد العزيز فيلاي، المرجع نفسه، نفس الصفحة.
- ⁴⁷ - الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط7، 1415 هـ / 1994 م، ج 2، ص 218. القلصادي، أبو الحسن علي، رحلة القلصادي، تح، محمد أبو الأحفان، الشركة التونسية للتوزيع، د ط، 1978، ص 151 .
- ⁴⁸ - السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح، محمد أبو الفضل إبراهيم، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي، ط1، 1384 هـ / 1965 م، ج 1، ص 375 وما بعدها .
- ⁴⁹ - حركات إبراهيم، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9 هـ / 15 م، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1420 هـ / 2000 م، ج2، ص 107. الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ط، د ت، ج1، ص 119 - 121. محمد قويسم، المرجع السابق، ص 311. عبد الرحمان الجيلالي، المرجع نفسه، ج2 ص 219.
- ⁵⁰ - عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص 43 - 44. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 153-154.
- ⁵¹ - أبو القاسم الحفناوي، المرجع السابق، ج 2، ص 562 - 563. محمد قويسم، المرجع السابق، ص 313 - 314 .